الفصل الثانى

تطور علوم الحساب

من الثابت أن العرب منذ الجاهلية إلى صدر الإسلام العباسى كانوا يستخدمون الحساب فى أمورهم العملية من بيع وشراء وتقسيم الغنائم والإرث وقياس الأراضى والكيل والوزن وما شابه ذلك · فالأعداد والكميات كانت تدون عندهم بالكلمات لا بالأرقام ، فيقال مثلا : (أربعمائة وأربعة دنانير) وبعضهم يكتب هذا العدد بالرموز الهجائية فيكتبه (تد) حيث إن التاء تساوى ربعمائة والدال تساوى أربعة وهكذا ·

ثم ترك العرب هذه الطريقة الهجائية وانتقلوا إلى نظام الترقيم الهندى بعد توحيد الأرقام فى اللهجات المختلفة جاعلين الصفر يعبر عن الجزء الخالى فى العدد أو الفراغ طبقا للتفسير الهندى · وهكذا باستخدام تسعة أرقام والصفر توصل العرب إلى حل المسائل الحسابية وتدوين الكسور العادية والعشرية ، وأمكن بناء المعادلات الرياضية ·

وانتشر استعمال الأرقام فى بلاد الأندلس والمغرب العربى ومنها انتقلت إلى أوربا وعرفت باسم الأرقام الهندية أو العربية ، حيث إن الهند وقتئذ كانت تمثل قلب الوطن العربى[1] ·

أولا : حساب المال فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين :

وما كان الإسلام ليغفل شأن المال وهو أهم مقومات الحياة ، فيقول عز من قائل : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِالدُّنْيَا ﴾[2] وحثنا سبحانه وتعالى على كتابة الأموال مهما صغر حجمها : ﴿ وَلاَ تَسْئَمُوَا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ﴾[3] .

وقد استعمل النبى ﷺ رجالا لجمع الزكاة والصدقات ، وكان يحاسبهم

---

(١) محمد غانش الغوتى من علماء تونس ، علم الحساب عند العرب ، جريدة الشرق الأوسط ، جدة ، ١٦ مايو ١٩٨٤ ·

(٢) سورة الكهف : ٤٦ (٣) سورة البقرة : ٢٨٢ ·

ويأمر بكتابة الأموال من تحصيل وصرف وغير ذلك ، وكان أبو بكر يحاسب عماله بدقة حتى قال له عامله مرة (أهما حسابان ، حساب فى الآخرة وحساب فى الدنيا) وكان عمر يستقدم عماله مرة كل سنة للمحاسبة .

وورد فى الأثر أن عمر بن الخطاب كان يحاسب سعد بن أبى وقاص فيغضب فيقول له عمر : (عزمت عليك ألا تدعو على أخيك) ، ويضاحكه حتى إذا ذهب غضبه قال له : (تعالى نتحاسب ، فإن اليوم أيسر عليك من غـــد) ويقصد بكلمة (غد) يوم القيامة ، وكان عمر يخشى من دعاء سعد عليه لأنه من العشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ بأنهم من أهل الجنة ودعوتهم مجابة[1] .

ثانيا : حساب المال فى صدر الإسلام :

ازدادت أهمية علم الحساب فى صدر الإسلام بعد انتشار الشركات بأنواعها المختلفة ، والتوسع فى بيت المال وإنشاء الدواوين المختلفة التابعة له ، وفى هذا يقول الحريرى : (إن صناعة الحساب موضوعة على التحقيق ، وإن قلم الحاسب ضابط وأن الحسبة هم حفظة الأموال ، ولولا قلم الحســـــاب لأورت ثمرة الاكتساب ، ولا تصل التغابن إلى يوم الحساب ، ولكان نظام المعاملات محلولا)[2] .

ويعرف القلقشندى ، علم الحساب بأنه : كتابة الأموال من تحصيل وصرف فى بنودها المختلفة[3] كما يشمل أيضا ما يستلزمه ذلك من عمليات حسابية، ورقابة على الخزائن المختلفة وهو بذلك يتفق مع التعريف الواسع لعلم المحاسبة المعاصرة .

ومن علماء العرب فى الحساب الذين ذاع صيتهم فى الآفاق أبو بكر الكوفى وابن البناء المراكشى وغياث الدين الكاشى واضع كتاب (مفتاح الحساب) الذى تناول فيه علوم الجبر والهندسة والفلك والفيزياء . ولن ينس العالم الحديث فضل العلامة

---

(١) العلامة رفاعة الطهطاوى ، بيروت ، ١٩٧٧ ، الجزء الرابع ، صفحة ٨ .

(٢) د . حسين شحاتة ، المحاسبة فى الإسلام ، مجلة الاقتصاد الإسلامى دبى ، ربيع الثانى ١٤٠٢هـ ، صفحة ٢٣ .

(٣) العلامة رفاعة الطهطاوى ، مرجع سابق ، الجزء الرابع ، صفحة ٢٩٢ .

أبى عبد الله الخوارزمى الذى ظل كتابه الأول فى علوم الحساب من حيث مادته العلمية ، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية ثم اللغات الأخرى ، وظل مرجعا لعلماء الحساب فى العالم يهتدون به إلى وقتنا الحالى . كما بقى علم الحساب نفسه قرونا عديدة معروفا باسم (الغورتمى) عند الأوربيين نسبة إلى عالمنا العربى الخوارزمى ، جزاه الله عنا وعن العلم كل خير آمين[١] .

وقد أورد القلقشندى بعض المراسيم الخاصة ببيوت المال ورد فيها (ولتحقيق بيان ضبط الأصل والخصم ، والواصل والحاصل والمحضر والمخرج)[٢] وجاء فى غيرها (فليضبط أصولها وفروعها ومفردها ومجموعها ، وليكفلها بأمانة تضم أطرافها، ونزاهة تحلى أعطافها ، وكتابة تحفز جليها ودقيقها ، وليحرر واردها ومصروفها ، ويلاحظ جرائد حسابها)[٣] .

وجاء أيضا فى هذه التعميمات المالية (فإن للدولة الشرعية من الأقلام ضابطا ، ولها من الحساب نظاما أصبح عليها سياجا وحافظا ، ويصون الأموال ، ويحرز المطلقات النفقات ، بعدا وقربا ، وليباشر هذه الوظيفة ، وإذا أمسك دفاتره أظهر مآثره ، وإذا نسيت الجمل أبدى تذاكره ، والعمدة على شطبه فى الحسابات الحاضرة فلا يخرج من عنده شىء بغير ثبوت)[٤] . وتشير هذه المراسيم إلى أن مهنة الحساب قد تطورت فى العصرين الأموى والعباسى إلى درجة عالية بما يتلاءم مع النشاط الاقتصادى واتساع الدولة الإسلامية ، فقد نصت المنشورات المالية وقتئذ إلى ما يلى :

١- ضرورة إثبات جميع العمليات المالية من حيث كتابة الرقم الإجمالى والخصم والصافى بوضوح مع مراعاة الدقة التامة .

٢ - يلزم أن تكون كل عملية حسابية مؤيدة بالمستند الصحيح .

---

(١) محمد غانش الغوتى ، علم الحساب عند العرب ، جريدة الشرق الأوسط ، جدة ، ١٦ مايو ١٩٨٤ .

(٢) الواصل يعنى التفصيل ، والحاصل هو الناتج ، والمختصر يعنى الوارد ، والمخرج هو الصادر .

(٣) أعطافها يعنى تغطيتها ، والجرائد جمع (جرد) .

(٤) يحرز المطلقات النفقات أى تحصل المطلقـــات على النفقات ، والعمـدة من يعتمد أو يوثق ، والحسبات هى الحسابات ، وثبوت يعنى إثبات .

٣ - تحفظ الأموال فى خزائن خاصة مع مراعاة تطبيق نظام سليم يحقق ، الرقابة على هذه الأموال .

٤ - يلزم اعتماد المستندات والعمليات الحسابية من الجهة صاحبة الاعتماد والتى يحددها النظام .

٥ - يجب مراجعة الحسابات بمعرفة جهة أخرى غير التى قامت بإثبات الأموال وضبط الأعمدة الأفقية مع الرأسية ، والتأشير على الحسابات التى يتم مراجعتها .

٦ - يعمل جرد تفصيلى فى نهاية كل فترة لمقارنة أرقام الدفاتر مع الواقع الفعلى وبحث أسباب الاختلافات[١] .

ويبدو من ذلك بوضوح أن الدول الأوروبية قد أخذت من المسلمين الكثير من أصول المعاملات ، وإثبات الحسابات فى الدفاتر وطرق مراجعتها واتباع أنظمة المراقبة الداخلية فى المشروعات .

ثالثا : الحساب والمحاسبة :

نظرا لأن الأرقام صماء ليس لها دلالة بمفردها ، فإن الحساب هو العلم الذى يقوم بأداء عمليات عليها تؤدى إلى إظهار علاقات ونتائج جديدة منها ، فكأن الحساب هو (العد) ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « احتسبوا أعمالكم ، فإن من احتسبَ عملهُ كُتب له أجرُ عمله وأجرُ حسبته »[٢] ، والحساب يعبر عن علاقة من عنصر أو جانب واحد ، أما المحاسبة فإنها علاقة بين عنصرين ، أحدهما مدين والآخر دائن ، وقد ظهرت المحاسبة من علم الحساب المعروف .

وفى اللغة العربية يطلق الحساب أيضا على القصد والتدبير ، ومن ذلك قول العرب (فلان حسن الحسبة) يعنى لديه حسن تفكير وتدبير ، والاحتساب هو الحساب المؤجل أو البطىء ، ومن ذلك قول الرسول ﷺ : « من آوى يتيما

(١) د. محيى الدين رشاد طرابزونى، الموازنة العامة للدولة فى المملكة العربية السعودية ، مجلة الاقتصاد والإدارة ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ١٤٠٠ هـ ، ٧٤ نقلاً عن : صبح الأعشى للقلقشندى ، الجزء الأول .

(٢) د . بكر محمد قوته ، الصفات الشخصية لمراقب الحسابات فى الإسلام ، مجلة الاقتصاد والإدارة ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة ، ذى الحجة ١٤٠٣هـ ، صفحة ٣٣ .

أو يتيمين ، ثُمّ صبرَ فاحتسبَ ، كُنتُ أنا وَهو فى الجنة ، كهاتين » ثم رفع أصبعيه السبابة والوسطى . ويقول أيضا : « مَن صَامَ رمضان إيمانًا واحتسابا غُفِر لَهُ ما تقدَّمَ مِن ذنبِهِ وما تأخَّرَ »[1] .

وتطلق الحسبة فى النظام الإدارى الإسلامى على حسابات الدولة والمواريث وعلى دار مراقبة الموازين والمكاييل ، أما المحتسب فهو مراقب السوق الذى يعينه الخليفة ، لمراقبة تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية فى الأسواق ، ومراجعة الحسابات قبل دفع الزكاة ، وكشف المخالفات وإنزال العقوبات بالمخالفين .

ونظرا لأهمية الحسبة والمحتسب كنظام رقابى فى الدولة الإسلامية ، فقد عالجه كثير من علماء الإسلام مثل ابن تيمية والغزالى والماوردى وابن بسام بكثير من الإسهاب ، ويرى بعض الكتاب أن دول الغرب قد نقلت نظام الحسبة الإسلامى من خلال الحروب الصليبية ، وقد تأثر به العهد القيصرى فى روسيا نقلا عن دول الغرب، وانتشر فى الدول الاشتراكية متمثلة فى دور المدعى العام الاشتراكى[2] ، لحماية أنظمتهم الوضعية من الانهيار .

* * *

---

(١) لسان العرب ، الجزء الثانى ، صفحة ٦١ .

(٢) د . بكر محمد قوته ، المرجع السابق ، صفحة ٣٣ ، نقلا عن : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عن مهرجان الإمام ابن تيمية سنة ١٩٦٠م ، صفحة ٦١٣ - ٦٢٢ .